عبد القادر من طفولته إلى طور الشباب

حامد الزغل

لمّا أعلمني الدكتور محمد كرّو أنه ينوي إنجاز كتاب عن شقيقي عبد القادر، استحسنت المشروع وشجعت صاحبه. فهو أعرف الناس بأخي وبأفكاره. فقد تردد كرّو إلى عبد القادر كثيرا. ولا شك أن الحوار الطويل والمتكرر واللانهائي بين رجلين مختصين في علم الاجتماع كان يتناول أساسا مسائل تتعلق باختصاصهما. لكني أعتقد أنه لم يكن ينحصر في شؤون أكاديمية، خاصة أنه تزامن مع الثورة التونسية، وما حدث بعد 14 جانفي من غليان فكري وسياسي. فالسياسة وحتى الأمور الشخصية لم تكن غائبة في جلسات الرجلين، اللذين أصبحا صديقين حميمين.

لم يكتف الدكتور محمد كرّو بإشعاري بنيته تحرير كتاب عن عبد القادر، وإنما أضاف أنه يود أن يحتوي عمله على جزء يتعلق بحياة شقيقي من طفولته إلى طور الشباب، مع وصف مختلف الأوساط التي نشأ أو شب فيها، وتضافرت في تكوين شخصيته. وطلب مني تحرير هذا الجزء. قبلت الطلب دون تردد. لكن لما بدأت أفكر في إنجاز ما وعدت به، شعرت أني تسرعت. فكيف يمكن لي، أنا الذي عايشت عبد القادر زمن طفولتنا، أن أروي حياته في تلك الفترة دون أن أمزجها بحياتي ؟ فقد ينحصر الحديث عن نشاطه في وصف نشاطنا المشترك، وقد لا أتعرض إلى اهتماماته إلا من خلال زاويتي واهتماماتي. ثم ألم يقل المؤرخون إن الكتابة الموضوعية في حياة شخص ما، تستلزم وجود مسافة بين الكاتب والشخصية المعنية بالأمر؟ بيد أن هذا الكاتب لا يعرف مثلي الأسرة التي نشأ فيها عبد القادر

لأنها أسرتي، ولا الوسط المدرسي المشترك الذي طبع بقدر كبير شخصيتينا. ثم إننا كنا تحت تأثير نفس الوسط الثالث في طفولتينا. فكثيرا ما كنا ونحن طفلان نجوب معا شوارع المدينة مكتشفين نشاطها، أو يلازم كل منا دكان صاحب مهنة في أيام العطل المدرسية. فاستمعنا كثيرا للأحاديث التي تشغل بال الكهول في أواسط الثلاثينات من القرن الماضي.

لكن إذا كان للبيئة دور هام في نحت شخصية أي إنسان، فهي ليست وحدها كافية. وقد يكون لتركيبة جينات أي مولود أثر في تطوره، بقدر لا يقل عن التأثيرات البيئية. فالأوساط التي عشت فيها مع عبد القادر لم تجعلنا متشابهين. فقد بدأت تظهر شخصية كل منا منذ طفولتنا. وازدادت وضوحا في طور المراهقة، عندما أصبح لكل منا أصدقاء جدد، في مدرستنا الثانوية. فتباعدنا بعض الشيء. لكن الأسرة ظلت تجمعنا، وانخراطنا الاثنين في الحركة الكشفية جعلنا نتأثر سويا بمبادئها وأفكار قادتها.

ثم غادرت صفاقس بعد أن تحصلت على شهادة البكالوريا، بينما واصل عبد القادر دراسته في المعهد الثانوي، فتباينت الصلة بيننا. ثم رجعت عن طريق المراسلة اليومية في سنة 1952، إبان ثورة تونس الأولى. ثم انقطعت من صيف سنة 1952 إلى خريف سنة 1954، إذ كنت في الجزء الأكبر من هذه المدة في السجن، بينما كان شقيقي في شبه منفى. وأخيرا، التقينا في باريس. وقد ظهر وقتها أن لكل منا اتجاهاته السياسية. لا شك أن كلا منا تأثر بالوسط الذي عاش فيه طيلة السنتين السابقتين.

سيقف حديثي عن عبد القادر عند هذه المرحلة من حياته. وسوف أحاول التعريف بشخصيته وبميوله ونشاطه من خلال معاشرتي إياه، وكذلك بفضل شهادات أشقائي الآخرين، وبما أفادني به أصدقاؤه الذين عاشروه في فترة ما من حياته.

الأسرة الصغيرة والأسرة الواسعة

كنا خمسة أطفال وبنتا واحدة نعيش معا تحت جناحي أبوينا، أحمد الزغل وحليمة طاجينة. أنا البكر. وتلاني عبد القادر في الترتيب العمري. وكانت بيني وبينه سنتان تقريبا. قلت تقريبا لأني لست على يقين بأن بطاقة ولادة كل من أبناء والدي الذكور تحمل التاريخ الصحيح. فقد وقع استخراجها لأول مرة بعد قرار

صدر عن قاضي صفاقس، إثر شهادة أدلى بها أمامه خالي الشيخ عبد السلام وقريب آخر لأسرتنا. فقد ذكرا باليوم والشهر والسنة تاريخ ولادتي وولادة عبد القادر وكل من أشقائي، الحسين والحسن وحمادي. كان ذلك في شهر مارس من سنة 1940، أي بعد اثنتي عشرة سنة من يوم أن رأيت النور لأول مرة. لذلك استبعدت صحة التواريخ التي صرح بها خالي وصديقه. وقد أدت التحريات التي قمت بها وأنا كهل، أنني وُلدت في سنة 1928، لا سنة 1929، كما هو مكتوب في بطاقة ولادتي. وأعتقد أن خالي صغَّر عمر أشقائي بعام كامل، مثلما فعله معي. ومن الأرجح أن تكون ولادة عبد القادر سنة 1930 لا سنة 1931.

لم يكن أبي هو الوحيد الذي لم يسجل تاريخ ولادة أبنائه في الإبان. فكثيرا ما كان أهالي صفاقس في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي يخفون وجود أبنائهم الذكور، حتى لا يقع إلحاقهم بعسكر المستعمِر، عندما يبلغون سن الرشد. لكن، لما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وقررت فرنسا ضم التونسيين إلى جيشها، استثنت من هذا التجنيد من هو رب عائلة كثيرة العدد. فوجد أبي في هذا الاستثناء وسيلة للبقاء في أسرته، بتسجيل ولادة أبنائه في دفاتر الحالة المدنية.

وهكذا واصل والدي ووالدتي وأطفالهما وابنتهما العيش معا في حجرة تقع بدار على ملك جدتي من الأم. وهذه الدار هي شبيهة بجل الديار العربية في مدينة صفاقس. فهي عبارة عن صحن تحيط بثلاثة من أضلعه ثلاث غرف، بينما يؤدي الضلع الرابع إلى المطبخ والحمام، وإلى سقيفتين تفتح إحداهما على الشارع. كان خالي الشيخ عبد السلام طاجينة يسكن في الغرفة الوسطى مع زوجته عائشة. وكانت الغرفة الموجودة على يمين الداخل إلى الدار من نصيب جدتي «ديجة»، وقد ترملت وبقي معها حفيدها محمد شبشوب بعد أن فقد أبويه. وهو يكبرني بحوالي عشر سنوات.

وكانت عائلتنا تسكن الغرفة الثالثة. وهي مثل جل الغرف في البيوت العربية تنقسم إلى جزأين، أصغرهما هو عبارة عن مسافة مرتفعة عن سطح الغرفة، بها سرير والديَّ. والجزء الثاني يحتوي خاصة على خزانتين تضمان ملابس أفراد الأسرة، وعلى «بنك» مستطيل الشكل، قرر أبواي أن أستأثر به للنوم، «طبقا لحقوق البكورية». أما المساحة الباقية من أرضية الغرفة، فهي مكان جلوسنا وإعداد فروضنا المدرسية، وعليها نتحلق حول «الميدة»، عندما يحين وقت الغداء أو وقت العشاء. وعليها أيضا ينام أشقائي.

لكن يندر أن تجمعنا الغرفةُ كلَّنا عند النوم. فكان عبد القادر ينام عادة بين

أحضان جدتي في السنوات الأولى من طفولته. ولما شعرت أمي أنها تحمل توأمين، تم الاتفاق على أن يتبنى خالي وزوجته المولود الثاني، إذ لم ينجبا بعد. وهكذا أخذت عائشة هذا المولود، فسُمّي «حسن»، ولم تعد تسلمه إلى أمي إلا لترضعه.

والحقيقة أننا كنا مع خالي وزوجته وجدتي وحفيدها نشكّل الأسرة الواسعة. فلم يكن يفرقنا أي شيء، سوى أن لعائلة خالي غرفة و«طنجرة» خاصتين، وكذلك الحال بالنسبة إلى عائلتنا. وكنا نحن الأطفال نتقابل كل يوم مع عائشة وجدتي وخالي، أكثر من أن نرى أبي. ذلك أن والدي كان صاحب مقهى. وكان يخرج فجرا من المنزل ليفتح مقهاه، ولا يغادره إلا ليغلقه. فيدخل أبي البيت ليلا ويتعشى، ويتحدث قليلا مع زوجته حول شؤون الأسرة، ثم يسلِّم إلى أمي «مصروف» اليوم الموالي، ويصعد الاثنان إلى سريرهما، بعد إطفاء نور مصباح البترول الذي أضاء الغرفة.

كانت أمي ربة البيت حقا. فهي قائمة وحدها على طعامنا ولباسنا وتعليمنا وتربيتنا. وتستعين في ذلك بشقيقها عبد السلام. فبطلب منها يقود خالي كلا منا إلى تاجر أقمشة أو ملابس، أو إلى مؤدب كُتّاب أو مدير مدرسة ابتدائية، أو إلى صاحب مهنة لنلازم دكانه أيام العطل المدرسية. فقد كانت والدتي تقول : «لا أريد أن يتسكع حامد وعبد القادر في الشوارع، فيقعا تحت تأثير كلاب السوق.»

وكان خالي بمثابة أبينا الثاني. فقد نال شهادة التطويع من جامع الزيتونة بالعاصمة، مما أهله لإمامة صلاة الجمعة وصلاة الأعياد. ففي ثلاثينات القرن الماضي، كان في الصبيحة يشتغل في تجارة الزيت، ثم يلازم حجرته بعد الظهر لتحرير خطبة الجمعة، أو لإعادة تحريرها، أو لقراءة جريدة «النهضة» اليومية أو «المجلة الزيتونية» الشهرية. فكان مرجع سكان الدار في كثير من الشؤون.

ودارنا لم تكن فقط دار علم، بل هي أيضا دار فن وأدب. ذلك أن ابن خالتي محمد شبشوب الذي يسكن في غرفة جدتي، كان ممثلا بارعا ومؤلفا لروايات مسرحية، ثم صاحب جريدة أسبوعية، أسماها «الأنيس». فكثيرا ما كنت أذهب خلسة إلى خزانته، وأغوص في المجلات المصرية المحفوظة لديه، وأتدرب شيئا فشيئا على قراءتها. وكنت أسعى دوما إلى مصاحبته، فأسأله في كثير من الأشياء، ولا يبخل عليَّ بالإجابة. لقد تأثرت به كثيرا ولا أظن أن عبد القادر تحصل على نفس التأثير.

لكني أعتقد أنه تأثر أكثر مني بجدتنا. فقد لازمها منذ أن فطمته أمي. فقد عوّض والدته بثدي جدته، وإن كان يفقد الحليب. وظل عبد القادر شهورا طويلة يلجأ إلى «مصّاصته» الطبيعية، حتى في سن الدراسة الأولى. لا شك أنه استمع كثيرا

إلى روايات جدتنا عن بعض الأحداث وإلى النصائح التي كانت تزوّد بها كلّا من أحفادها عندما يتقدم قليلا في السن. وأعتقد أن عبد القادر سجل في ذهنه مثلي هذه النصيحة : «يا وليدي، اعمل الخير في أهلو وفي غير أهلو حتى تلقى أهلو.»

عبد القادر الطفل

لم يكن في محيط دارنا أجوار مسلمون. كانت تسكن قبالة منزلنا عائلات إيطالية، وأبعد منها قليلا أسر يهودية. لم يعدم تماما الحاجز اللغوي الاتصال بين أمي وعائشة وجاراتنا الإيطاليات. وكانت نتيجته أن القابلة التي أشرفت على ولادتي وولادة جميع أشقائي كانت إيطالية. أما اليهوديات، فقد كنّ يترددن كثيرا على دارنا، وكانت تجمعهن مع أمي وعائشة مودة صافية.

لكننا نحن الأطفال لم نجد قرب دارنا من هم في سننا لنتعرف عليهم ونجعل منهم أصدقاء. فتوثقت العلاقات فيما بيننا، خاصة بين كل شقيقين قريبين في السن. وهكذا كان الحسن والحسين لا يتفارقان أبدا إلا للنوم، حتى عندما كانا يجهلان أنهما توأمان. كما أصبحت العلاقة بيني وبين عبد القادر أكثر وثوقا، رغم أننا لا نتشابه. وهبني الله ذاكرة قوية، ولم يمنح مثلها لعبد القادر. كنت أحفظ سريعا السُّور القرآنية، بينما ظل أخي أياما وأسابيع، دون أن يعرِض كاملة سورة الفاتحة. كنت شديد التوق إلى معرفة ما أجهله. أقرأ كل ما أعثر عليه في الدار من صحف ومجلات وكتب، رغم أني لم أكن أفهم جلها. وكان عبد القادر لا يهتم بهذه المطبوعات. كنت أخرج منفردا من المنزل وأتجول من ساحة إلى أخرى، ومن نهج إلى آخر، حتى أكون ملما بكل جزء من المدينة العتيقة. كان عبد القادر يرغب أيضا في التجول في الشوارع. لكنّ هدفه هو الانشراح والتحرر من الحصار في البيت أو في المدرسة.

وحدث يوما ونحن نسير معا في شارع المدينة الرئيسي، أن أطلق عبد القادر صيحة مدوية تتمثل في شعار معروف في صفاقس : «ألف يهودي ولا غرنوطي»، ورده ثلاث أو أربع مرات. لا شك أن شقيقي سمع هذه العبارة من أحد رفاقه في المدرسة، إذ لا أحد في دارنا تفوه بها، حتى ابن خالتي محمد شبشوب الذي كان عنصرا نشيطا في الحزب الحر الدستوري الجديد. ولم تقف «شيطنة» عبد القادر عند هذا الحد. فكان يشاكس الأطفال اليهود. وكانوا يلوذون بالفرار بمجرد أن يقع نظرهم عليه.

وذات يوم طالت جولتنا نحن الاثنين في المدينة. ولما دخلنا الدار وجدنا أمي وعائشة وخالي في حالة خوف نظرا لتأخر وصولنا. فاتفقوا على عقابنا وعلى البدء بعبد القادر. فرفعت أمي وعائشة ساقيه، ومسك خالي بعصا وأخذ يضرب شقيقي على أسفل قدميه بقوة، وهو يبكي ويستغيث. ولما جاء دوري، تقرر إرجاء عقابي ليقع في المدرسة. و فعلا، اصطحبني خالي إلى المدرسة، وتحدث مع المدير، وكان قرارهما إعفائي من العقاب.

شعرت أن هناك حيفا في المعاملة تجاهي وتجاه عبد القادر. كان واضحا حتى قبل هذه الحادثة أن أمي وشقيقها وزوجته يفضلونني على إخوتي، لا لأني البكر فقط، بل لأنهم يعتبرونني أحسن أطفال البيت سلوكا وأقدرهم في الدراسة. لا شك أن عبد القادر كان يشعر في قرارة نفسه بازدواجية سلوك كبار الأسرة الواسعة. لكن، لم يصدر منه أي امتعاض، ولا أدري هل كان يعتقد أن هذا السلوك طبيعي قد أملته العادة في المجتمع، أم كان يعتبر أن فيه ظلما، عليه أن يتحمله.

وعلى كل حال، فإن العلاقة بيني وبين عبد القادر ظلت وثيقة، خاصة عندما قررت أمي بأن أقضي أيام العطل المدرسية في دكان «تارزي»، ويقضيها عبد القادر في قاعة حلّاق. لكن شقيقي لا يقدر أن يبقى ساعات طويلة سجينا في قاعة. فكان يختلق الأعذار ليغادرها ولو لـمدة قصيرة. فيأتي إلى دكان «التارزي»، ويخرجني من عزلتي التي لم تكن تقلقني كثيرا، ونمضي حوالي ربع ساعة ونحن نتفسح. ثم يرجع كل منا إلى المكان الذي عُيّـن فيه. ولـمكان عبد القادر بعض الفوائد. ذلك أن العادة كانت تُلزم «صانع» الحلاق أن يبقى واقفا بجانب الحريف، طوال جلوسه على كرسي الحلاقة. فيتعلم الطفل المبتدئ المهنة شيئا فشيئا، ويزيل في الآن نفسه الشعرات التي تساقطت على ثياب الحريف. ولما تتم الحلاقة، يعطي أحيانا هذا الأخير إلى «الصانع» «صوردي» أو اثنين، جزاء سلوكه المُرضي. وقد استفاد عبد القادر من هذه العادة. فكان يصرف هبات الحرفاء في شراء حلوى أو ما يشابهها.

وفي يوم من الأيام، أخرجني أخي من دكان «التارزي» ليعلمني مسرورا أنه تحصل على هبة أكبر من المعتاد. وسألني كيف نصرفها نحن الاثنان. كنت في تلك الأيام شديد الرغبة في معرفة جريدة «النديم»، ذات الاتجاه الدستوري القديم، بعد أن قرأت أو تصفحت جل الأسبوعيات كجريدة «الشباب» أو «كل شيء بالمكشوف»، أو «الزهو» وغيرها. فقلت لعبد القادر : «سنشتري بهذا المال شيئا عظيما لم تعرفه من قبل. سنشتري جريدة تحتوي على عديد الحكايات الفكاهية، وسأقرؤها لك.»

وافق عبد القادر على إقتراحي. فأخذنا «النديم»، وشرعت أقرأ بعض ما هو موجود في صفحاته. وكان أخي يومئ برأسه كأنه فاهم، ويبدو لي أنه لم يفهم. ورغم هذا، فقد تواصلت ثقة عبد القادر بي وتصديقه لكل أقوالي. وتواصل تجوالنا المشترك في أرجاء المدينة.

ولما انتقلتُ إلى المعهد الثانوي، وأصبح لي أصدقاء آخرون، تباعد تجوالنا المشترك. وفي السنة الموالية، وتحديدا في شهر نوفمبر من سنة 1942، نزلت جيوش الحلفاء في المغرب والجزائر بينما احتلت قوات المحور الجزء الأكبر من البلاد التونسية. وكانت النتيجة أن أصبحت صفاقس هدفا لقنابل الطائرات الأمريكية باستمرار. فتهدمت مبان كثيرة، وأُقفلت الدكاكين والمدارس الموجودة بالمدينة، واضطر السكان إلى مغادرتـها لاجئين إلى الأجنّة المحيطة بها. وانتقلت عائلتنا إلى «جنان» عمتي الواقع على بعد ستة كيلومترات من المدينة. فتوقفت دراستي ، وأصبحت أمضي معظم الوقت في تـتبع المعارك الدائرة بين الحلفاء والمحور بواسطة ما لديَّ من خرائط جغرافية، أو في قراءة كتاب ضخم أهداه إياي ابن خالتي محمـد شبشوب، والمتضمن قصائد الشعراء العرب، من الجاهلية إلى القرن العشرين، ولو لم أكن أفهم الكثير منها. أما شقيقي حسين، فقد التحق بالمدرسة الابتدائية التي لا تبعد عن ملجئنا. لكنَّ عبد القادر أبى الذهاب إليها، رغم أنها تحتوي على فصل يساوي مستواه التعليمي.

وهكذا ظل أخي في كامل طفولته كارها المدارس وميالا إلى اللهو واللعب.

عبد القادر المراهق

منذ شهر أكتوبر من سنة 1945، أصبح عبد القادر تلميذا في المعهد الثانوي للذكور بصفاقس. وقد سجل هذا التاريخ تحولا هاما في حياته. فقد انتقل من طور الطفولة إلى طور المراهقة، وأصبحت شخصيته غيرَ التي كانت له وهو طفل. فقد جذبه المحيط الدراسي الجديد بفضل أساليب التعليم فيه، والمعاملة الليِّـنة التي وجدها التلاميذ من قبل المدرسين، وكذلك بسبب الجو المنعش الذي ساد بين رفاقه. فقد تدرجوا معا من السنة الأولى إلى السنة السابعة من التعليم الثانوي، وكانت تحدوهم عزيمة قوية للتعلم والنجاح. وكان معلوما في المعهد أن الدفعة التي ضمت عبد القادر كانت من بين أحسن الدفعات. فقد تخرج منها الوزيران، مَحمّد شاكر وأحمد شطورو، والطبيب المختص في أمراض القلب محمد بن

إسماعيل، والجرّاح المشهور محمد الفراتي، والمربي الممتاز الطاهر مظفر، والكاتب الكبير مصطفى الفارسي، ورجل الأعمال الناجح محسن حشيشة، وغيرهم ممن غابوا عن ذاكرتي.

ولم يكن المحيط الثالث أقل أهمية من المحيط المدرسي بالنسبة إلى عبد القادر. فقد وجد خارج المعهد جمعيتين كان لهما أحسن التأثير في تلاميذ المعاهد الثانوية. كانت جمعية الثقافة والتعاون المدرسي تضع على ذمتهم مكتبة ثرية تحتوي على أمهات الكتب في الأدب والفن والتاريخ والعلوم، باللغتين العربية والفرنسية. وكانت تشجعهم على إلقاء محاضرات وعرض مسرحيات وتنظيم فرق رياضية. وكانت جمعية الكشاف المسلم التونسي تشجعهم على العمل الجماعي، و تدربهم على اتخاذ المسؤوليات وقبول نتائجها، وتغرس فيهم حب الوطن والالتزام بخدمته.

وجد عبد القادر في هاتين الجمعيتين ما يفتح أمامه آفاقا جديدة. فانضم في الأولى إلى قسم التمثيل، وحرص على أن يشارك ولو بدور بسيط في رواية «الطبيب المغصوب» للكاتب الفرنسي موليار. وبها انتقل لأول مرة إلى عدة مدن في الجنوب التونسي.

وكان أخي أكثر نشاطا في الجمعية الكشفية. فقد وجد فيها قادة أكفاء، كان شعارهم: «علموا الأطفال وهم يلعبون.» وانخرط في فرقة يقودها صديقي منصور معلّى، وهو يفوق عبد القادر بأربع سنوات في سلّم الدراسة. وفي الأثناء، تحصلت الجمعية الكشفية على الموافقة لمشاركتها في الجمبوري العالمي السادس، المقرر عقده في فرنسا في شهر أوت من سنة 1947. و استعدادا لهذا الملتقى الدولي الذي سيضم لأول مرة كشافين تونسيين مسلمين، قررت القيادة العامة للجمعية أن تتركب البعثة من أربع طلائع، بحساب طليعة من كل من أقاليم الجمعية الأربعة. واختار القادة في صفاقس الاعتناء بفرقة منصور معلّى اعتناء خاصا، قصد انتقاء عدد من أفرادها ليشكلوا الطليعة التي ستشارك في الجمبوري. وكان من بين الكشافين المختارين أخواي عبد القادر وحسين. فسافرا لأول مرة خارج أرض الوطن، وتمكنا من ربط علاقات مع بعض أندادهما من بلدان مختلفة.

وفي هذا المخيم الدولي، أراد الفرنسيون اعتبار تونس عنصرا من جملة عناصر «فرنسا ما وراء البحار،» يظلها العلم الفرنسي. لكن الكشافين التونسيين أصروا على إبراز ذاتيتهم وعلى العمل تحت راية بلادهم. وتراجع الفرنسيون، وقبلوا على مضض وجود العلم التونسي بين أعلام الدول المشاركة. وكان هذا الحدث أول صراع عاشه عبد القادر ضد الاستعمار، وإن لم يكن له فيه دور ممتاز مثل دور قادته.

وكان وقتها الحماس والتأهب للعمل في سبيل استقلال تونس يسودان جو فِـتـيـة صفاقس. ولما أشرف الزعيم الهادي شاكر على إحداث شعبة دستورية تخص تلاميذ المعاهد الثانوية، وأسند رئاستها إلى أحمد شطورو صديق عبد القادر، كان شقيقي من أول المنخرطين في هذه الشعبة. فأصبح له نشاط كثيف صُلْبَ جمعية الثقافة والكشافة والشعبة، بالإضافة إلى دراسته في المعهد الثانوي.

وهناك تَدرّج بشكل طبيعي من سنة إلى أخرى. لكنه انتقل في السنة الرابعة من «القسم التونسي» إلى «القسم العصري». والفرق بينهما أن الأول يطبق كامل برنامج الثاني المعمول به في المدارس الفرنسية، ويضيف إليه تعليما مكثفا للغة والأدب العربيين. تم انتقال عبد القادر بطلب منه لأنه يجد أكثر سهولة للتحرير باللغة الفرنسية من جهة، وحتى لا يثقل نفسه بمراجعة دروس كثيرة من جهة أخرى.

ولما ارتقى إلى السنة السابعة، أي السنة النهائية في التعليم الثانوي، اختار الالتحاق بقسم الفلسفة. وكان مدرّس هذه المادة الرئيسية تقدمي الاتجاه، وهو الأستاذ الفرنسي جان دُوفينيو Jean Duvignaud، الذي سيلقاه أخي في العاصمة، مدرّسا في قسم العلوم الاجتماعية، التابع لنواة الجامعة التونسية.

لكنَّ دراسة عبد القادر انقطعت بعد أربعة أشهر. فقد قررت السلطة طرد التلاميذ التونسيين بالمعهد لمدة غير محدودة، لأنهم تظاهروا في ساحته، مساهمة منهم في تنديد سائر الشعب بسياسة الاستعمار، إثر اعتقال الزعيم الحبيب بورقيبة في 18 جانفي 1952.

وقتها تتابعت المراسلات بيني وبين عبد القادر، ثم أصبحت يومية. كنت في تلك الفترة طالبا في باريس، أتابع أحداث تونس من خلال الصحف الفرنسية. فكانت رسائل عبد القادر تُكـمِّل الأخبار المتداولة في فرنسا عن تونس، وتحيطني علما بما يجري في صفاقس. و كان أخي مستاء من تردد المسؤولين الدستوريين في عاصمة الجنوب في دفع الشعب إلى التظاهر، منتظرين موافقة السلطة. فقرر مع صديقه أحمد شطورو وعددا من رفاقه في القسم النهائي العمل دون استشارة «المسؤولين». فـجمعوا كافة التلاميذ التونسيين بالمعهد الثانوي، ونظموا إضرابا عن الدراسة وعن الطعام. وفي اليوم التاسع من شهر فيفري، تظاهروا أمام قنصلية اليونان، لأن ممثل هذا البلد كان يرأس وقتها مجلس الأمن، حيث ستُدرس القضية التونسية. وكان رد البوليس عنيفا جدا. فانهال على التلاميذ ضربا وركلا. وكانت النتيجة جرح العشرات والقبض على عدد أكبر من المتظاهرين، من بينهم عبد القادر. لكنه تصنّـع الإغماء، فنجا من السجن بفضل هذه الحيلة.

علمتُ بتفاصيل هذا الحادث في إحدى رسائل أخي، الذي أرفقها بصور عدد من التلاميذ الجرحى. فكانت رسالته أساسا لنشرية صدرت باسم فرع باريس للاتحاد العام للطلبة التونسيين، و وُزِّعت في فرنسا وخارجها.

وفي شهر ماي، رأى عبد القادر أنه ينبغي تعويض التظاهر بشكل أكثر تأثيرا وصدى في العالم. وكان شقيقي يعرف صديقي القائد الكشفي محسن القلال الذي سُجن مدة ثلاثة أشهر في سنة 1946، بسبب مشاركته في طبع وتوزيع جريدة «الكفاح» السرية. فاعتبر الاثنان أن المرحلة الراهنة تقتضي تفجير مفرقعات أمام مبان رسمية. وشرعا في البحث عن مكان تُجمع وتُصنع فيه العبوات الناسفة. فاقترح عبد القادر مكانا يبعد ستة كيلومترات عن المدينة، كان مصطافا لأسرتنا في سنوات ماضية. وجد محسن المحل مناسبا، خاصة أن لا أحد يسكن في محيطه إلا في فصل الصيف. وتم فعلا في هذا المحل جمع المفرقعات التي تحصل عليها محسن من هنا وهناك. وفي الأثناء، كان ضروريا أن يضم الصديقان إليهما عناصر أخرى تساعد على صنع العبوات الناسفة أو على تفجيرها في أماكن معينة. وتكفّل عبد القادر بجسّ نبض بعض الكشافين لمعرفة مدى استعدادهم للقيام بالعمل المباشر. ووجد تجاوبا مع الكشاف محمد الزواري، فتم ضمه إليهما.

لاحظ شقيقي حسين تكرار تواجد عبد القادر ومحسن القلال مع بعضهما، رغم أنهما ليسا صديقين حميمين. ففهم أنهما يستعدان للقيام بعمل سري يدخل في إطار المقاومة ضد الاستعمار. وطلب من عبد القادر الانضمام إليهما. فرفض قائلا: «عليكَ أنت أن تأخذ على عاتقك مسؤولية العائلة.»

ولما حللت بصفاقس قادما من باريس، في أواسط شهر جويلية، لم أجد عبد القادر. وقيل لي إنه سافر إلى رومانيا لحضور مؤتمر شبابي، يمثل أخي فيه التلاميذ التونسيين. لكنه لم يرجع بعد انتهاء المؤتمر، وظل بعيدا عن أرض الوطن طيلة ثلاث سنوات.

عبد القادر الشاب

بعد أيام قليلة من وصولي إلى مسقط رأسي، أسرَّ إليَّ محمد الزواري أنه يصنع المفرقعات ويفجرها في أماكن مختلفة. ولم يعلمني أنه شرع في هذا العمل بإيعاز من عبد القادر وبتعاون معه. وفي منتصف شهر أوت، كشف لي محسن القلال عن طبيعة عمله السري، وطلب مني تعويضه لمدة أسبوعين تقريبا نظرا لعزمه

السفر إلى فرنسا. لم أسأله عن سبب هذا السفر، لأن الكتمان كان شعار المقاومين، والتزموا به طالما ظلت بلادنا تحت الحكم الاستعماري. وبمجرد أن نالت تونس استقلالها، تفتحت الأفواه. وعندها علمت أن سفر محسن إلى فرنسا كان بمبادرة من زوجة المعلّم الكشاف، الطيب اللوز، وهي معلمة فرنسية ذات اتجاه شيوعي تروتسكي. فقد طلبت من أصدقائها في فرنسا، تنظيم مخيم لفائدة محسن وعبد القادر، يتدربان فيه على الطريقة المثلى لتفجير المنشآت العمومية، مثلما وقع في فرنسا، أثناء احتلالها من قبل الألمان. ولما سألت يوما أخي عن نتيجة هذا المخيم، أجاب أنه كان مضيعة للوقت بالنسبة إليه وإلى محسن. فقد ظهر أن منظّميه كانوا يستهدفون جرهـما إلى الصف التروتسكي، أكثر من تعليمهما صنع العبوات الناسفة.

وبعد هذا المخيم الفاشل، رجع محسن إلى صفاقس ولم يرجع عبد القادر. فقد قرر البقاء في فرنسا ومواصلة تعلمه هناك قصد الحصول بعد سنة على شهادة البكالوريا. وفعلا تم ترسيم أخي بصفة مقيم (interne) في معهد يقع في إحدى ضواحي باريس. وتطوع صديقي التيجاني الكتاري – وهو وقتها طالب في فرنسا – ليكون مراسل عبد القادر (correspondant)، ويمثل بهذه الصفة الجهة التي يمكن للمعهد الاتصال بها عند الحاجة.

وفي أواخر شهر أكتوبر، أصدر بوليس صفاقس بطاقة جلب تخصّني وتخصّ عبد القادر، بعد أن ألقى القبض على محمـد الزواري. وتم بالفعل إيقافي في مطار تونس مساء 31 أكتوبر. وعندما علم التيجاني أن بوليس باريس يفتش عن أخي، اتصل هاتفيا بإدارة معهده، وأبلغها أن والدة عبد القادر مريضة جدا، ويتعين عليه السفر سريعا للاتصال بها. أدرك شقيقي خطورة الوضع، وغادر المعهد بسرعة، دون التفكير في جمع ثيابه وأدواته المدرسية. و بعد نصف ساعة من خروجه من المعهد، حل به البوليس باحثا عن عبد القادر.

كان ذلك في اليوم الأول أو الثاني من شهر نوفمبر من سنة 1952. ومنذ هذا التاريخ، وطيلة سنتين كاملتين، ظل أخي طريدا يسعى إلى التحصن في مكان يحجبه عن أنظار البوليس الفرنسي. علمت أن الطالب عبد السلام كمون، الذي كان زميلي في الدراسة في المعهد الثانوي، آوى أخي في مسكنه مدة يومين. وعلمت أيضا أن صديقي منصور معلّى صارح أستاذَه جان دراش Jean Dresh بموضوع عبد القادر. وهذا المدرس الجامعي كان معروفا بآرائه التقدمية فقبِل أن يأخذ عبد القادر على عاتقه ويسكنه لديه.

لكني أستبعد أنه أبقاه في بيته أكثر من بضعة أيام. والغالب على الظن أنه اتصل بأوساط شيوعية التزمت باحتضانه. ماذا فعلت هذه الأوساط طوال شهور عديدة؟ لا أدري. بيد أن صديقي التيجاني الكتاري ذكر لي تشيكوسلوفاكيا كبلد لجوء. قد يكون ذلك. أفترض أن الشيوعيين مكنوا عبد القادر من جواز سفر باسم مستعار، لتيسير سفره إلى عاصمة تشيكوسلوفاكيا، حيث يوجد مقر الاتحاد الدولي للطلاب (UIE)، وفيه أمكن لأخي أن يشتغل دون خوف من البوليس الفرنسي.

أعتقد أن عبد القادر عاش شهورا صعبة وهو بعيد عن وطنه. لا شك أنه كان يتابع تطور الأحداث في بلده. وعلم أن رئيس الحكومة الفرنسية أعلن حق تونس في الحكم الذاتي في 31 جويلية 1954، مما أحدث جوا من الهدوء في البلاد، وعدول البوليس عن تتبع الفارين. فقرر أخي الرجوع إلى فرنسا لاستئناف دراسته. وفي مفتتح السنة الجامعية، التحق بالمعهد الوطني للبحوث في الشغل وللتوجيه المهني (Institut national d'études du travail et d'orientation professionnelle)، لإعداد دبلوم في علم النفس.

رجع شقيقي من منفاه بعد أن وجد العون من الشيوعيين وعاش في محيطهم مدة طويلة. رجع وهو يتبنى بعض المواقف الشيوعية، دون أن ينزع عنه انتماءاته الوطنية. وفي نفس الوقت رجعتُ إلى باريس لإتمام دراستي، بعد أن قضيت عشرين شهرا في السجن، بين مناضلين أحببتهم وأحبوني. فأصبحت أكثر التحاما بحزبي الدستوري، دون أن أنزع عني ميولي اليسارية.

وكنت أتقابل مع عبد القادر في مقر جمعية الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا، حيث تنعقد اجتماعات التونسيين. وقتها كانت الحكومتان التونسية والفرنسية تتفاوضان حول تطبيق الاستقلال الداخلي. فساند معظم الطلبة الدستوريين وكل الطلبة الشيوعيين مجرى التفاوض، وناهضته أقلية دستورية يوسفية. فكانت عرضة لتعاليق عبد القادر الساخرة.

وبعد انتهاء السنة الجامعية 1954 – 1955، رجعتُ مع عبد القادر إلى تونس، حيث انعقد المؤتمر الثالث للاتحاد العام للطلبة التونسيين. حضرت المؤتمر بصفتي نائبا عن جامعة فرنسا، وحضر شقيقي حسين نائبا عن معهد الدراسات العليا، واندسّ عبد القادر في المؤتمر. و قبل يوم واحد من انعقاده، علمنا أن إدارة الحزب الدستوري قررت ترشيح عبد المجيد شاكر لرئاسة الاتحاد، رغم أنه يفقد صفة النائب في المؤتمر. فأثار هذا القرار نقاشا طويلا و معارضة عدد كبير من النواب. وكان عبد القادر يحرّض المعارضين على التشبث بمواقفهم. لكن، بعد جلسة دامت

يوما كاملا، عين المؤتمر عبد المجيد شاكر رئيسا للاتحاد. فاعتبر عبد القادر أن ما وقع هو أول خرق للمبادئ الديمقراطية في تونس المستقلة.

وفي هذا المؤتمر، حضرت سعاد بلخوجة. وهي ناشطة كشفية مثل أخي حسين. فعرّفها بعبد القادر. ويبدو أنها كانت معجبة بمواقفه في المؤتمر. ولم يكن لقاؤهما هذا الأول والأخير. فقد تقابلا مرة أخرى خلال السنة الجامعية 1956 – 1957 في باريس، حيث يُتمِّم عبد القادر دراسته في علم النفس، بينما حلت سعاد كزائرة بالعاصمة الفرنسية. وهناك توثقت الصداقة بينهما، ثم ارتفعت إلى مستوى الحبّ.

ورجع عبد القادر إلى تونس في صائفة سنة 1957، بعد أن أحرز على الدبلوم في علم النفس. وكان يفكر في الرجوع مرة أخرى إلى فرنسا للتعمق في اختصاصه. لكنّ سعاد نجحت في إقناعه بالعمل في كتابة الدولة للشباب والرياضة بصفة مسؤول عن ديار أطفال بورقيبة. قبِل أخي العرض بعد تردّد كبير. ثم تزوج بسعاد بلخوجة في 22 ديسمبر 1957. لكن، لا الوظيفة، ولا الزواج، ولا حتى الإنجاب لم يبعده عن شغفه بالمطالعة ومزيد التعلم. فقد كان يلتهم الكتب التهاما، ويجِدُّ في البحث دون هوادة. وكأنه أراد تعويض الزمن الضائع. ووجد في زوجته أقوى سند له للغوص في العلوم السوسيولوجية، حتى أصبح عالما كبيرا في اختصاصه، بعد أن كان في طفولته غير كثير الـتحمّس للتعلّم.